باريس - نيويورك فى ست ساعات

« أعترف بأنى فى أمريكا رأيت أكثر من أمريكا.. كنت أبحث عن صورة الديمقراطية ذاتها، بميولها، وطبيعتها، وتحيزاتها وانفعالاتها، حتى نعرف ما نخشاه من تقدمها، وما نرجوه ».

الكونت ألكسيس ده توكفيل ١٨٣٣ م

فى ٢٩ أكتوبر ١٩٧٤ غادرت باريس بالطائرة « الجامبو » (بوينج ٧٤٧) إلى نيويورك فبلغتها فى ست ساعات. وفى ٢٥ نوفمبر طرت فى الساعة الثامنة مساءً من مطار نيويورك الكبير (جون كنيدى) فوصلت إلى باريس فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل، بحساب ساعتى دون تغيير توقيتها، وبما أن الشروق فى باريس يسبق الشروق فى نيويورك بست ساعات، فقد ضبطت ساعتى على الساعة الثامنة صباحاً فى باريس، أى بعد ست ساعات من مغادرة نيويورك.

وفى اليوم التالى من الوصول إلى باريس، استخرجت من بين أوراقى الكثيرة وريقة عليها هذا العنوان « فندق كيربورن بارك »، رقم ١٢٦٠ شمالا، شارع « ديربورن باركوى ». امتحنت ذاكرتى لأعرف المدينة التى نزلت بها فى هذا الفندق، فلم تسعفنى سوى كلمة « شيكاجو ». وبجانبها تاريخ مغادرتى للمدينة الأمريكية العظمى.

أذكر هذه التفاصيل لسببين:

الأول أن هذه ليست المرة الأولى أعبر فيها عدداً ملحوظاً من خطوط

obeikandi.com

الطول أو العرض، وذات مرة عبرت خطوط العرض من الإسكندرية حتى خط ١٠ درجات جنوبى خط الاستواء. ومن روما حتى مونتيفيديو عاصمة الأورجواى حتى خط ٣٥ درجة جنوبى خط الاستواء.

وأن سفرى لأول مرة من القاهرة إلى باريس سنة ١٩٢٥ استغرق أكثر من ستة أيام على حين أن الوصول إليها اليوم يتم فى أقل من ست ساعات، وبعد الحرب العالمية الثانية توًّا، مكثت بالطائرة نحو ثلاثين ساعة لأبلغ لوندرة من القاهرة، وأكثر من ثلاثين ساعة (١٩٥٤) للوصول من روما إلى مونتيفيديو.

لنتأمل فى تواضع ما حققه الإنسان فى أسفاره حول الكرة فى أقل من نصف قرن، بل ما توصل إليه علماء ورواد الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية من السفر إلى القمر، وارتياد سطحه وفحص تربته، ووشيكاً يتم الاتصال بين الكواكب، وواحدة من المركبات ذاتية الحركة عبرت حتى كتابة هذه السطور (٢٧ نوفمبر ١٩٧٤) إلى المريخ، فى طريقها إلى المشترى. وتصور أن سرعة إنتقال الإنسان حتى بعد عصر نابليون حددتها سرعة الجياد، هذا والحمام الزاجل أسرع وسيلة لنقل الرسائل، ومنذ أربعة قرون وصل كولمبوس بعد أشهر من مغادرته شبه جزيرة إيبريا إلى بعض جزر الهند الغربية فى البحر الكاريبى، فحسب أنه بلغ شرقى آسيا.

والسبب الثانى لذكر هذه التفاصيل هو إيضاح أننى تركت لأوراق الفنادق وجدول انتقالى بالطائرات وقائمة مواعيد محاضراتى، تحديد خط رحلاتى من شرقى الولايات المتحدة (نيويورك) إلى أقصى غربيها (سان فرانسسكو)، زائراً أو محاضراً أو متحدثاً بجامعات نيويورك، وهارفارد

obeikandl.com

(قرية كمبردج ضاحية بوسطن)، ومدينتى واشنطن وشيكاجو (ولم أزر جامعتيها، مكتفياً بارتياد المعهد الإسميثونيان فى عاصمة الولايات المتحدة، كانت إقامتى بكل من هذه المدن لا تتعدى ثلاثة أيام، فيما عدا بوسطن التى نزلت بها مرتين قبل سفرى إلى أقصى الغرب .

أما انطباعاتى، وقراءاتى، ومشاهداتى فقد اعتمدت فى كتابتها (بباريس) على الذاكرة وحدها، لكثرة انشغالى بالمحاضرات واللقاءات والمشاهدات العلمية والفنية والتاريخية، هذا إلى أننى فى رحلاتى غير حريص دائماً على تسجيل مذكرات، أو ملاحظات. ولعلى أصدر فى هذا عن مذهب، فنى سليم، وهو أن مالا تحفظه الذاكرة لا قيمة له، وأن ما يترك فى النفس أثره، فتحرص الذاكرة عليه، قد يؤتى ثماره، إن ريض القلم.

والولايات المتحدة الأمريكية، مشكل إنسانى واجتماعى، لا أحسبنى توصلت إلى تحليله، مع أن الموضوع الذى أرجو التوفيق فى كتابته هو معالجة هذا المشكل.

ما من شك فى أننا حيال شعب عظيم حقًّا، منفسح الرؤية، جدير بمركز أمته وحكومته بين شعوب العالم وحكوماتها، شعب هائل فى إنجازاته المادية والأدبية والفنية والفكرية، ولست رجل سياسة لأحكم على نجاح أو فشل سياسة حكومته، ولكن لانكران لهيلمانها فى العالم الحديث، لا يضارعه ويصارعه سوى سلطان الاتحاد السوفيتى، كل فى مجموعة الأمم التى تؤمن، وتمارس كثيراً أو قليلا، نظامه الاجتماعى والاقتصادى.

لقد قدرت فى مختلف ممارساتى قيمة الكتب والموسوعات العلمية التى تصدرها أمريكا،وعرفت من طريق المسجلات أوركستراتها السيمفونية

التى تقف فى صدارة أمثالها بأوربا الغربية والشرقية. وأسمع بشهرة دار أوبرا المتروبوليتان وقاعدة كارنجى (نيويورك) وقاعة السيمفونى (بوسطن)، وطالعت شيئاً من الأدب الأمريكى الكلاسيكى والمعاصر، وعرفت بعض الأمريكان فى بلادنا، وفى أوربا، أقران علم، أو زملاء اجتماع، وأعجبت بصفات هؤلاء وأولئك وهى صفات اجتماعية تمتاز بالود والصراحة، مع بعض الاجتراء، والاعتزاز بالنفس، عثرت على تفسيره فى قول مؤرخ معاصر من مؤرخيهم: أمدت الثورة الأمريكية (للتحرر من الحكم البريطانى)، الشعب الأمريكى بمكانة مستقلة فى أسرة الأمم، وأعطته نظاماً اجتماعيًّا ينقص فيه حساب الإرث والثروة والتمييز عن حساب المساواة، وإن كانت الثقافة وآداب السلوك قد هبطت إلى أجل، فلأن المساواة بين الناس قد قويت، كذلك أهدت الثورة الشعب الأمريكى، آلاف الذكريات التى تعمل فى توطيد إحساسه القومى.

ويمكن الإضافة، تعليقاً على جملة (أعطت الثورة للشعب نظاماً انخفضت فيه المستويات الثقافية وآداب السلوك إلى أجل «قول المؤرخ ذاته: «إن المغامرات فى اتجاه الغرب حتى المحيط الباسيفيكى بذرت فى طبيعة الأمريكى العنف، وسرعة المبادرة، والأثرة، وحب التفوق على الآخرين، إلى درجة الرغبة العارمة فى الخروج عن القطيع».

الصعود حتى جبهة تمثال الحرية

فى صباح اليوم السابق على مغادرتى أميريكا عائدًا إلى أوربا، توجهت إلى الطرف الجنوبى لجزيرة مانهتان حيث مداخل ميناء نيويورك، لأشاهد تمثال «الحرية تضىء العالم». لم أكن أعرف أنه مقام فوق جزيرة صغيرة تواجه السفن القادمة، وتودع الخارجة من المرفأ الهائل. كان يوم أحد بجمهوره، وأغلبهم أميريكان من خارج نيويورك، أو من داخلها. ركبنا المعدية حتى جزيرة التمثال. وعرفت عقب دخولى بناء قاعدته أن من الممكن الصعود داخل التمثال وكنت أتصور فى سذاجة أن المصعد يوصلنا إلى القمة، فإذا به يقف نهائيًا عند سطح القاعدة الفسيح. وللناس الخيار حينذاك فى الاكتفاء بمشاهدة المنظر حول التمثال: ناطحات السحاب فى مانهتان على القرب وبروكلن وكوينز على البعد. وهذه هى الصورة التى تنطبع عند كل مشاهد لنيويورك من الأعالى، أو من السفن أو فى الصورة الثابتة والمتحركة.

الخيار فى ذلك، أو فى الصعود إلى رأس التمثال من داخله، وذلك يتم فوق درج حلزونى كدرج المآذن والفنارات. وهو صعود شاق لاجتماع الضيق، والدوران، والطابور الصاعد واحدًا لصق الآخر، ويستغرق ربع ساعة أو أكثر.

بلغنا داخل الجبهة لنطل من «طاقة» صغيرة مكشوفة هى جزء من الحلية أو التاج على رأس سيدة الحضارة (الحرية). اكتفيت بالنظرة

العابرة لأن ضيق المكان لا يسمح لغير واحد من الطابور المزدحم، بالوقوف طويلا خلف الطاقة المكشوفة. استطعت أن أرى منها إلى اليمين بعض الذراع الحاملة للشعلة، التي تضيء العالم، وعدت نازلا أدراجي.

التمثال من صنع الفنان الفرنسي فريدريك بارتولدى، أهدته الحكومة الفرنسية إلى الحكومة الأمريكية اعترافاً بجميل معاونتها فى حروبها مع إنجلترا وفرنسا هى التى قدمت فى حرب تحرير أميريكا من النير البريطانى، حملة عسكرية من خمسة آلاف رجل يقودها الكونت ده روشامبو (ماريشال فرنسا فيما بعد)، أما لافاييت فقد ذهب متطوعاً وعين فى جيش الثورة، تحت قيادة جورج واشنطون، برتبة ميجور جنرال.

والمثال الفرنسى (المتوفى عام ١٩٠٥ بارتولدى أصله من كولمار بالإلزامس، وله فيها متحف بمسقط رأسه. وقد اشتهر بارتولدى بالتعبير الوطنى، وبطريقة ضخمة لا تعنى بالتفاصيل. وقد لا يعرف الكثيرون من زوار باريس أن تمثال (أسد بلفور) بميدان دانفير - روشروه رمز الدفاع عن حصن بلفور، واحد من أحسن تماثيل بارتولدى. وأن بميدان من ميادين مدينة بال (سويسرا) مجموعة من أقوى أعماله الوطنية، تمثال نكبة فرنسا فى فقد الإلزامس فى حرب السبعين. والمجموعة تمثل «سويسرا تستقبل الإلزامس الحزينة» وتمثال القناة الإلزامسية، استطاع بارتولدى أن يركز فيه تأثرًا إنسانيًا عميقًا.

عدت إلى مانهتان لأقضى بقية اليوم وبعض المساء فى متحف «جوجنهايم» وهو بناء عجيب مستدير كأنه «بيرسلم»، ضخم، لادرج فيه (مثل بير الحلزون فى قلعة صلاح الدين) يصعد الزائر إلى أعلاه

بالمصعد، ثم ينزل على منحدر دائرى فى جوانبه حجرات أو «حنيات» العرض وهى مجرد المسافة بين المنحدر وحائط المبنى الدائرى، وتتغير معروضاتها حسب الظروف، فالمتحف مختص بأعمال الفن الحديث والمعاصر.

وفى آخر المنحدر حجرات، أو ممرات تعرض فيها بصفة دائمة مجموعة قيمة جدًّا من أعمال كبار المصورين منذ مطالع الانطباعية والتأثرية والضارية، والتكعيبية.. حتى آخر مبدعات عظماء المدرسة المعاصرة.

وأميريكا غنية جدًّا فى مقتناياتها للفن الحديث والمعاصر، كما أنها تحتوى على مجموعات فنون الشرق والغرب ومن أقاصى آسيا حتى الإقيانوسية ويمكن القول بأن مدارس التصوير والنحت الأوربى متمثلة فيها تمثلا قريبًا من الكمال. وإن كانت نسبة كبيرة من أعمال عظماء المصورين والنحاتين الأوربيين تمثل لوحاتٍ وقطعًا تتفاوت قيمتها، وهذا طبيعى فى أمة حديثة التكوين، دخلت سوق المقتنيات متأخرة. ولكن أثرياءها لا يترددون فى دفع أغلى الأثمان كلما ظهر فى السوق العالمية عمل اكتشف حديثًا. مثال ذلك صورة «المليون دولار» لرمبرانت، وربما كانت هذه فى نظرى هى الوحيدة من صور رمبرانت بمتحف المتروپوليتان (بنيويورك) التى تمثل الهولندى العظيم أحسن تمثيل.

محاولة لفهم الولايات المتحدة والأمريكان

ما إن تأكدت من تحقيق الدعوة لزيارة الولايات المتحدة فى الخريف الماضى، حتى بدأت الاطلاع الجاد على شئون تلك البلاد الواسعة التى لم أعرف عنها أكثر مما طالعت فى مؤلفات علمائها ومفكريها وأدبائها، وما رأيت من أفلامها، وسمعت من موسيقاها الكبرى (أى مما هو غير الجاز وأقربائه).

ركزت اهتمامى الأول على الجانب التاريخى من قيام الولايات المتحدة، وحرصت على وعى دستورها، وطريقة ممارسة الحكم فيها، مستعيناً بأزمة عنيفة قائمة حول رياستها، وهى المعروفة بفضيحة «ووترجيت». والعالم يشهد سطوة الرأى العام الحر، والصحافة القوية، الطليقة من قيود الحكم والتحكم، والإيمان بدستور عاش، ويحيا دون تغيير أو تبديل منذ مائتى عام، إنما أضيفت إليه عشرون مادة تعرف بمواد التعديل أو التصحيح، مجاراة لتطور المجتمع، واتساع رقعة البلاد عبر نهر المسيسبى، مما يفرض إضافات جديدة تحقيقاً لطوارئ الحدثان، وارتقاء مدارج العمران. هذه حقيقة لا يتنبه إليها الناس عادة فى ناحيتنا من العالم، وهى أن دستور الولايات المتحدة الأمريكية هو الوثيقة الوحيدة بين أمثالها فى العالم، التى لم يتغير حرف منها على مدى قرنين من الزمان، أى منذ استقلال الولايات المتحدة الثلاث عشرة عن إنجلترا برلماناً وحكومة ومُلكاً. ولو كان الدستور البريطانى (فيما عدا «الماجناكارتا» العتيقة) وثيقة مكتوبة لكان

أسبق وأقدم الدساتير الحية فى العالم. فما أكثر ما تعدلت الدساتير منذ الثورة الفرنسية الكبرى فى أواخر القرن الثامن عشر، وكذا دساتير البلاد والأمم الأخرى. فى الشرق والغرب.

وإذا كانت هجرة «الآباء الحجاج»، ركاب السفينة «ماى فلاور»، من وطنهم الإنجليزى فى مطلع القرن السابع عشر، دفاعاً عن مذهبهم الدينى الخاص، وتخلصاً من عبودية الكنيسة الرسمية الأنجليكانية، فقد ظلوا بأرض العالم الجديد مقيمين على تقاليد الديمقراطية البريطانية مؤمنين بحرية الإنسان فى ممارسة ملته ومذهبه، والتعبير عن رأيه بلسانه وقلمه، منفردًا ومجتمعًا على مرأى ومسمع من الناس.

وعندما أجحف ملك إنجلترا والبرلمان الإنجليزى بحق مستعمرى الأرض الجديدة بأمريكا، فى ألا يفرض عليهم ضرائب دون استشارتهم، وحينما بدأ القهر لتنفيذ ما قررته الحكومة الإنجليزية من ضرائب، أضرم المهاجرون الأوائل فى ثلاث عشرة ولاية نيران الثورة على الدولة الأم، واختاروا مُزارعًا من ڤرچينيا لقيادة حرب الاستقلال، هو جورج واشنطن القائد الهادئ، والرائد الحكيم.

وخير ما يذكر بصدد هذه الثورة ونتائجها، هو وثيقة «إعلان الاستقلال» وضعتها لجنة من خمسة أعضاء جاء فيها: «..... وهذه حقائق توضح ذاتها بذاتها:

«وهى أن الناس خلقوا سواسية، وهبهم الخالق جلّ وعلا حقوقًا لا تخلى عنها، ومن بينها: الحياة، والحرية، ومتابعة السعادة. وأنه للمحافظة على هذه الحقوق تنشأ الحكومات بين الناس، تستمد سلطانها من موافقة المحكومين – وأنه حينما يبدو أن النظام الحكومى أضحى مدمرًا

لهذه الغايات، فإن من حق الشعب تغيير الحكومة، أو محوها، وإقامة حكومة جديدة يكون أساسها وعمادها هذه المبادئ، وتنظم سلطاتها بطريقة تضمن للشعب السلامة والسعادة».

الصعوبة التي نلاقيها فى فهم أمريكا والأمريكان هو أننا لا نعى سوى القليل من أصول ديمقراطيتهم، ولقد عرفت قلة من الأمريكان فى مصر وخارج مصر، مثلا فى التهذيب، رفاقاً ودودين «عِشريّين». بل كان من أكبر من أثار إحساسى بتاريخ مصر القديم هو المؤرخ الأمريكى «بريستد» فى كتبه، قرأت منها فى شبابى الأول تاريخ مصر الفرعونية فى طبعاته الأولى وفى أوائل العشرينات أو قبلها، استمعت إلى محاضرة له اجتمع فيها جمهور غفير من طلبة المدارس العليا. وختم المؤرخ الكبير محاضرته بتوجيه كلمة إلينا مفعمة بالحماس، أثارت فينا نخوة الاعتزاز الصميم بحضارة أجدادنا الأوائل. ولقد أشرت فى كتابى «سندباد مصرى» إلى هذه الواقعة وإلى أستاذ أمريكى معاصر أظنه من تلاميذ بريستد، قرأت كتابين له، ونقلت فقرات من أحدهما تدعيماً للفصل الأخير الذى خصصته للفجر المنير، وإشراق شمس الحضارة المصرية على العالم القديم. ألا وهو صديقنا الأستاذ الكبير الدكتور ويلسون الذى شرفنى بلقائه لأول مرة وقدمه إلى المرحوم العلامة الدكتور فخرى. وطالعت فيها قرأت كتاباً ما فتئ مرجعاً من مراجع الديمقراطية الأمريكية فى ثلاثينات القرن الماضى الفرنسى الكونت الكسيس ده توكفيل.

سافرت إذن إلى الولايات المتحدة بعقل متفتح، يعرف بعض أصول ديمقراطيتها العظيمة فى صدقها، وإنسانيتها. العجيب منها أنها لم تنشأ فكرة فلسفية، ولكن بعض الرجال الأوائل الذين قادوا الثورة ضد

الإنجليز – ومنهم جيمس ماديسون ، الرئيس الرابع ، كانوا مطلعين إطلاعًا كافيًا على الفكر السياسي . فكان من أول ما فكر فيه واضعو الدستور أن تقوم الحكومة على ثلاث قواعد متوازية متوازنة : الهيئة التشريعية ، والهيئة التنفيذية ، والمحكمة الدستورية العليا ، مفصلياتها تسمح بالعمل المتوافق بينها ، على شريطة ألا تعدو واحدة منها على الأخرى . نشأت الفكرة بادئ ذى بدء من التجربة التاريخية لمستعمرى الأرض الجديدة ، وتقوت بكتابات الفيلسوف الإنجليزى لوك ، والفرنسى مونتسكيو . وكان واضحاً من كل ما خبره المستعمرون الأوائل – وجلهم بريطانيون – من النظم البريطانية ، أن تقوم الهيئة التشريعية (الكونجرس) على مجلسين . وأن يجيء تمثيل الولايات فى مجلس الشيوخ متساويًا تمامًا : شيخين عن كل ولاية . أما فى مجلس ممثلى الأمة فيكون مؤسسًا على النسبة بين عدد سكان كل ولاية . ثم فحصت فكرة اختيار رئيس الولايات المتحدة هل ينتخبه الكونجرس بمجلسيه ؟ ومعنى ذلك تغليب سلطاته على الرئيس بحكم انتخابه له . أو أن يقوم على التصويت العام بين كافة السكان ؟ وكان هذا صعبًا بسبب اتساع رقعة الأرض التى توزع فوقها السكان ، والتوسع المستمر فى المناطق الجديدة ، هذا مع صعوبة المواصلات ، وبطء الاتصال بين الولايات . فلم يكن ميسرًا أن يتفق اختيار مجموع السكان على مرشح واحد ، أو مرشحين قلائل . ثم انتهوا إلى مجلس انتخابى (كوليدج) خاص بالرياسة ، وهى خطة لم تنجح إذ لم تحسب حساب نمو الأحزاب السياسية .

أما عن المحكمة الدستورية العليا فقد انتهى الاتفاق على أن رئيس الاتحاد يعين قضائها مدى الحياة ، على أساس حسن السلوك ، بعد استشارة وموافقة مجلس الشيوخ .

جاء فى ختام الدستور «هذا الدستور، وقوانين الولايات المتحدة التى تصدر بمقتضاه، وكافة المعاهدات المعقودة، أو التى تعقد فيها بعد تحت سلطات الولايات المتحدة، هى القانون الأعلى للبلاد. والقضاة فى كل ولاية مقيدون به، مهما جاء فى دساتير وقوانين الولايات مما يعارضه ويخالفه».

وفى السابع عشر من سبتمبر عام ١٧٨٧ عقد المجلس التأسيسى (الكونفانسيون) آخر جلساته ووقع الأعضاء على الوثيقة التاريخية، باستثناء ثلاثة من الحاضرين رفضوا التوقيع.

كان الأعضاء شديدى التأثر باللحظة العظيمة، فى حين استغرق الرئيس واشنطون فى تفكير عميق. وخفف توتر الجو العلامة والكاتب بنيامين فرنكلين، أول سفير للولايات المتحدة لدى فرنسا، قائلا، وهو يشير إلى نصف قرص الشمس المرسوم بخطوط ذهبية على ظهر مقعد الرئيس: «إن الفنانين لاقوا دائماً صعوبة فى التمييز بين أن يمثل الرسم شمسًا طالعة، أم شمسًا غاربة. ما أكثر ما تطلعت فى هذه الجلسات إلى الرسم خلف ظهر الرئيس يداولنى الأمل والتوجس فى نتيجة أعمالنا، دون الحكم بأن الشمس طالعة أو غاربة. والآن، أخيرًا، أعبر عن سعادتى بالتحقق من أنها شمس مشرقة».

ومع ذلك فإن الرئيس الثالث للولايات المتحدة، توماس جفرسون يعترف «بأن المساواة ليست تامة فى أمريكا، فثمة عدم المساواة بين الفقير والغنى، بين النساء والرجال، بين السود والبيض. ولكن فشل المجتمع فى تحقيق المثالية لا ينفيها. لأن التمسك بالمثل العليا فى المساواة، وقد أعلنت، تعمل عمل الخمائر فى الفكر الأمريكى».

واختتم هذا المقال بالشعار القائم على رأس صفحة الرأى بجريدة « تشيكاجو تريبيون » منذ صدور أول عدد لها فى ١٠ يونية عام ١٨٤٧ : الجريدة منشأة نمت بالحضارة الحديثة ، لتقديم الأخبار اليومية ، ولرعاية التجارة والصناعة ، ولتنوير الرأى العام ، وقيادته ، ولكى تقيم الرقابة على الحكومة التى لم يتمكن دستور من الدساتير من القيام بها » .

Obeikandl.com

رؤية شعب من الداخل..

لم أكن فى رحلتى الأمريكية غير ضيف عابر سبيل دعاه «مركز البحث العلمى الأمريكى بمصر» - بصفتى عضو شرف به - إلى الاجتماع السنوى لأعضائه بمدينة بوسطن، حيث تلقى المحاضرات العلمية المتخصصة فى حضارات مصر: فرعونية، ومسيحية، وإسلامية، وفى دراسات المجتمع المصرى الحديث. ولقد دعتنى بهذه المناسبة خمس جامعات للتحدث فى موضوعات مصرية اخترت لها أربع محاضرات تمثل نشاطى العلمى والثقافى فاكتفت كلها باختيار موضوعين من أيسرها تناولا، ومما يتصل بشئون الأقسام صاحبة الدعوة، وهى أقسام الشرق الأدنى بجامعات نيويورك سيتى وهارفارد، وبرنستون، ويوتا (بمدينة صولت ليك سيتى)، وواشنطن (بمدينة سياتل على شاطئ الباسيفيك، إلى الشمال الغربى من ولاية واشنطن).

لو أننى عشت أربعة أسابيع الرحلة فى مدينة واحدة، لاستطعت اكتشاف حياة هذه المدينة، والتعرف على صورة أقرب إلى الصحة للحياة الأمريكية فى تلك المدينة. أما أن أزور فى أربعة أسابيع. ثمان من المدن خطفًا، فما كان أشبهنى بما كنت أسمعه فى أوربا تندرًا بالسياح الأمريكيين فى عمومهم.

كانت تلك الزيارات الخاطفة فى مجموعها اتصالا سريعًا بالجامعيين حتى فى البلاد التى لم أحاضر بجامعاتها، مثل واشنطن دى. سى. (أى

دستريكت أوف كولومبيا توكيدًا لأن المقصود هنا هو عاصمة الولايات المتحدة، لا ولاية واشنطن السابق الإشارة إليها). وسان فرانسسكو (جامعة بيركلى)، وشيكاجو.

ولقد أحسست بأن صورة الحياة الأمريكية- على ما بها من تشابه سطحى، هو الواقع دائماً فى الأمة الواحدة، أى التشابه المادى فى «صنعة الحياة» فهى تتميز فى كل مدينة زرتها بطابع خاص: أهل الشمال الشرقى فى الولايات التى تعرف فى مجموعها باسم «نيو إنجلند» يبدون لى مختلفين إلى حد واضح. عن أهل الغرب الأقصى (فى ولايتى واشنطن وكاليفورنيا).

وأن مدينة مثل صولت ليك سيتى، عاصمة ولاية يوتا، إلى الغرب من سلسلة «الروكى ماونتنز» قد انطبعت انطباعًا وثيقًا بحياة منشئيها. وهم «المورمون» تلك الطائفة التى أنشأ مذهبها المسيحى الخاص فى ثلاثينات القرن الماضى، جوزيف سميث. وتعرف كنيستها باسم «كنيسة قديسى آخر الزمان»، وهى الولاية الوحيدة التى تجمع فى حجرات فنادقها بين «الكتاب المقدس»، و«كتاب المورمون». ولعلى أعود إلى هذا الموضوع فى فرصة أخرى.

وأن سان فرنسسكو، وإن ذكرتنى بنيويورك فى ازدحامها، واتساعها ووقوعها على شاطئ إقيانوس هام، فقد شعرت بأن أهل شاطئ الباسيفيك فيهم سعات إنسانية تختلف عن سعات أهل نيويورك معترك المال والتجارة، وعاصمة الاقتصاد الأمريكى كله.

وأن عاصمة الاتحاد الفيديرالى، واشنطن دى. سى. فرضت على الاحترام والحب، بهدوئها الشاعرى على ضفاف نهر البوتوماك، وبطرقاتها

الفسيحة الممتدة، التى تتوهج نظافة بين مبانيها السامقة دون مغالاة، ينشرح الصدر لمرآها. لم أشهد فى واشنطن زحام الأفاريز، إلا على الضفة الأخرى لنهر البوتوماك، أى فى قسطها، أو ضاحيتها التابعة لولاية فرجنيا، والمعروفة عن قديم باسم «جورجتاون». أما شيكاجو، فإن موقعها على ضفة بحيرة ميتشيجان، يتمثل فى جمال ناطحات السحاب أصدق تمثيل. على عكس ناطحات نيويورك. فهذه شىء مخيف، مقبض، لا يخففه سوى الشطر الشمالى من الجادة الخامسة (فيفث آڤنيو)، إذا أتيح تأملها من واجهة مانهتان على السنترال بارك، أو من فوق سطح القاعدة المقام عليها تمثال الحرية بميناء نيويورك ولن أنسى، صبيحة خروجى إلى كورنيش ميتشيجان، على مقربة من الفندق، واتجاهى إلى الشمال سيرًا على الأقدام نحو ساعة حتى بلغت وسط المدينة الباهرة الزاخرة، شيكاجو. فناطحات السحاب تبدو هنا بنظامها الكامل. وجمال عمارتها شىء رائع كل الروعة. ولقد عرفت فى شيكاجو أن الفضل فى عمارة الناطحات راجع إلى معماريها العظام، وكانوا أول من ابتدع ذلك الفن المعمارى الخاص بالعالم الجديد (فرانك لويدرايت، سوريين، فالترجوربيوس، لودفيج ميس فان دوروهه).

وعندما عدت إلى بوسطن حيث نزلت ضيفًا على «مركز البحث العلمى الأمريكى بمصر» حضرت مآدب أعضائه واستمعت يومين كاملين إلى محاضريهم المتخصصين فى الفن الإسلامى والحضارة الفرعونية، والمجتمع المصرى الحديث، والمناقشات التى دارت عقب كل محاضرة.

وبوسطن حاضرة ولاية ماساتشوستس هى مهاد الحضارة الأمريكية، ومركز حركة التحرير والثورة على الإنجليز، لا يفهم قيمتها - كعاصمة

للفن والأدب والعلم - إلا لمن يعرف أصول التاريخ الأمريكى منذ مجىء الآباء الحجاج، على السفينة (ماى فلاور) فى مطالع القرن السابع عشر. ويمكن القول إجمالا بأن مجموعة الولايات فى الشمال الشرقى للبلاد المعروفة باسم «نيو إنجلند» هى التى أنبتت أبطال الثورة والدستور، منشئى هذه الدولة العظيمة: واشنطن وجفرسون وهاملتون وبنيامين فرانكلين وأسرة أدامز أعرق الأسرات الأمريكية، وجلهم إما من مدينة بوسطن، أو من ولايتى ماساتشوسيس وڤرجينيا. وضاحية كامبردج إلى الشمال من نهر تشارلس، تربطها ببوسطن تسعة من الكبارى، أنشئت سنة ١٦٣٠ وأطلق عليها سنة ١٦٣٨ اسم المدينة الجامعية الإنجليزية المشهورة، وقد اشتهرت بدورها منذ قامت فيها كلية اللاهوت (١٦٢٦)، وأصبحت بهذا أقدم وأوسع جامعات للولايات المتحدة صيتاً. أطلق عليها اسم جون هارڤارد القس البيوريتانى (١٦٠٧ - ١٦٣٨)، منذ أن أهداها بضع مئات من الجنيهات. وتحولت تحت رياسة شارلس إليوت (١٨٣٤ - ١٩٢٦) إلى جامعة حديثة مستكملة كلياتها (فى ثلاثمائة مبنى) ومنشآتها، حتى أصبحت وسط كامبردج مدينة جامعية كاملة، فيما عدا كليتى الطب وطب الأسنان، القائمتين بمدينة بوسطن.

كان طبيعيًّا أن أغدو شديد الإعجاب بالتاريخ الأمريكى، وقد عرفته متأخرًا جدًّا، لأن حياتنا الثقافية بمصر، بعد أن تفتحت على أوربا، لم تعرف سوى تاريخ فرنسا، وخاصة منذ ثورتها الكبرى. وأقل منه تاريخ إنجلترا، ويمكن التسلسل فى قلة المعرفة عند ذكر البلاد الأوربية الأخرى. فنحن نجهل تاريخ ألمانيا الحديثة، ونعرف من التاريخ الإيطالى عصر النهضة الفاخر، نقفز منه إلى عصر الوحدة الإيطالية فى أواخر القرن

الماضى ومن تاريخ روسيا نذكر بعض آثار وأعمال بطرس الأكبر، منشئ سان بطرسبورج، عاصمة القياصرة. كما نطلع على أعمال كبار أدبائها وموسيقييها. مما يجعلنا نلم ببعض تاريخ روسيا القيصرية فى القرن التاسع عشر. فإذا انفجرت الثورة الروسية عام ١٩١٧. بدأت معرفتنا بها مبتورة بسبب حصار الغرب لها وراء ما عرف «بالنطاق الصحى»، وجدد الاسم الاستعمارى ونستون تشرتشل عندما تحدث عن «الستار الحديدى». ولكننا تابعنا بعض مسيرة لينين وهو حى، وسمعنا بوفاته، وازداد اطلاعنا على الاتحاد السوفيتى فى سنوات الحرب العالمية الثانية، عندما كان للجيش الروسى البطل دور كبير فى القضاء على الطغمة النازية.

بدأت متابعة التعرف على أمريكا من بعض الكتب الصغيرة المهداة إلىّ، ومن كتاب رائد حقًا هو «تاريخ الجيب للولايات المتحدة»، تأليف نيفنز وهنرى كوماجر. وتاريخ أمريكا صورة لأثر ثقافة تالدة (الحضارة الأوربية) على فضاء متوحش، استعمره المهاجرون الأوائل ومن تبعهم، فاستطاعوا أن يقفزوا بالعالم الجديد فعلا عبر آلاف السنين من تاريخ الحضارة الأوربية أظهرت تلك البلاد الشاسعة على مسرح التاريخ جريئة نامية متحفزة. ذلك لأن المستعمرين الأوربيين الأوائل كانوا رجال حضارة نقلوا إلى القارة الأمريكية حضارة القرون السالفة.

كان نمو الولايات المتحدة حدثًا جديدًا على التاريخ. لأن القضاء المتوحش بغاباته وصحاريه وجباله وأنهاره، روافد المسيسيبى يواجه الرواد من شواطئ الأطلنطى حتى شواطئ الباسيفيك فكان من آثار ذلك اللقاء القاهر بين خليط من الشعوب والأجناس والملل والنحل تعديل الثقافات والمؤسسات الموروثة. إن إنشاء وتحقيق الاتحاد الأمريكى أعظم التجارب طموحًا، نتيجة هذا الخليط يجمع بين الخير والشر والفن، والروح العملية

والمثالية عند الإنجليز والإسكتلنديين والأيرلنديين والجرمان والطليان والإسكندناف، والتشيك والمجر والأسبان، واليهود من هؤلاء وأولئك ومن بولندة وروسيا ...إلخ.

أقول: كانت أمريكا أعظم التجارب نجاحًا من أثر اختلاط كل تلك الشعوب والأجناس تأكدت فيها الحرية الدينية والسماحة بين العناصر المختلفة، والمساواة الاجتماعية، والفرص الاقتصادية المتاحة، والديمقراطية السياسية. وإذا بحثنا عن «التيما» [اللحن الأساسى] فى الحياة الأمريكية فإنا لواجدونه قطعًا فى نمو الشعب على قدر من الذكاء والخبرة كاف للحاجة القصوى إلى الحرية، وعلى استعداد للعمل فى سبيلها، بل وللكفاح من أجلها.

obeikandl.com